سيجموند فرويد

العالم النفساني الكبير

للأستاذ صديق شيبوب

— ١ —

كانت هذه الحرب القائمة في شهرها الأول عندما حملت أنباء البرق نعي العالم النفساني الكبير « سيجموند فرويد » الذي أثار في حياته حرباً كلامية وقلمية لا تقل عنفاً عن حروب المدافع والقنابل ، وأحدث في علمي الطب والنفس ثورة وانقلاباً لا يقل مداهما عما تحدثه المدافع والقنابل في طبيعة الأرض وما تخلفه الحروب من تغير في أحوال البلدان وطبيعة العمران ونفس الإنسان

ذلك هو « فرويد » الذي توفي في ليلة الأحد الرابع والعشرين من شهر سبتمبر من السنة الماضية ؛ أي منذ عام تقريباً ، في منزله بهامستيد بانكلترا عن ثلاثة وثمانين عاماً قضاها في خدمة العلم باحثاً منقباً ، خالقاً مبدعاً ، لا تثنيه عن عمله هجمات مناوئيه ، ولا تشغله عن أغراضه أمور الدنيا ومشاكل العالم ، مخلصاً لفكرته ، معالجاً لأبحاثه ، ساعياً وراء غاياته ، حتى ركز علماً قائماً على التحليل النفسي وعلاقته بالغريزة الجنسية ، وأحدث حدثاً لم يقتصر أثره على الطب ومعالجة الأمراض العصبية وعلى علم النفس وتداخل الغريزة الجنسية فيه ، بل تعداها إلى الفنون والأدب .

ولد « سيجموند فرويد » بمدينة « فريبرج » الصغيرة بالنمسا في ٦ أغسطس سنة ١٨٥٦ وتلقى فيها التعليم الابتدائي ثم انتقل إلى فينا ودخل جامعتها ودرس الطب فيها ، بينما كان يشعر في قرارة نفسه بزهد في هذا العلم . وقد كان صريحاً حين كتب متحدثاً عن نفسه : « لم أشعر في طور الشباب وبعده بميل خاص لمهنة الطبيب أو مركز الطبيب من المجتمع . » ثم أضاف إلى هذا قوله : « على أنه كان يحركني نوع من الظمأ للمعرفة يتجه خاصة إلى الصلات الإنسانية أكثر منه إلى الأشياء

ـ على اضطرابه السياسي والاجتماعي ـ حركة علمية قوية أفاد منها أبناء الشام كافة . وليس أدل على ذلك مما حفظه لنا أبو عبد الله الكاتب الأصبهاني في « خريدة القصر وجريدة أهل العصر[1] » من الشعراء والأدباء الحلبيين والشاميين في القرن الخامس ممن لم نسمع بذكرهم ولا يعرف عنهم الأدباء المعاصرون شيئاً[2] ، فإن نظرة واحدة إلى ما احتواه هذا السفر القيم من تراجم الأدباء الشاميين تؤيد ما نريد الذهاب إليه من أن الحركة الأدبية التي قام بها سيف الدولة ظلت تنتج حتى أواخر القرن الخامس . ومن أفاد من هذه الحركة أبو العلاء المعري ، فقد ذكر ابن العديم المؤرخ الحلبي في رسالته (الإنصاف والتحري[3]) أن أبا العلاء بعد أن تلقى العلم واللغة والنحو بمعرة النعمان على والده — دخل وهو صبي إلى حلب ، فقرأ بها على محمد بن عبد الله بن سعد النحوي راوية أبي الطيب المتنبي وعلى أبي بكر محمد بن مسعود النحوي . . . وممن أفاد من هذه الحركة أيضاً ثابت بن أسلم الشيعي قيم خزانة حلب وكان من كبار النحاة والقراء[1] ، ومنهم علي بن منصور بن طالب المعروف بابن القارح وهو الذي كتب إلى أبي العلاء رسالته المشهورة فأجابه أبو العلاء برسالة الغفران[2]

أما بعد فهذه صفحة من صفحات تاريخ حلب الأدبية الخالدة التي خلفها ابن حمدان فرفع اسم حلب عالياً وخلده في سجل الأدب العربي ، وما يضير ابن حمدان أن يأخذ عليه بعض المؤرخين أنه كان جائراً على رعيته فإنه ما كان يجور عليها إلا ليحارب العدو بأموالها أو لينفقها في سبيل تعليمها وتأديبها .

محمد أسعد طلس

(١) من هذا الكتاب بضعة أجزاء في المكتبة الوطنية بباريس

(٢) كنت عزمت وأنا في باريس على تصوير القطعة الخاصة من الخريدة بشعراء حلب ودمشق بمشاركة شاعر الشام الصديق العلامة خليل مردم بك ولكن الظروف الحاضرة حالت دون ذلك ، والله المسئول أن يسهل لنا هذا بعد أن تزول السحابة السوداء الحالية

(٣) هذه الرسالة في ٤٦ صحيفة نشرها بكاملها محمد راغب الطباخ في الجزء ٤ ص ٧٨ من تاريخ إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء والرسالة مملوءة بالتحريف حرية بأن يعاد نشرها مضبوطة مصححة

(١) أنظر أعلام النبلاء ج ٤ ص ١٩٨

(٢) أنظر المصدر السابق ج ٤ ص ١٩٨ فما بعدها

الطبيعية . » وإذا عرفنا أنه نبس فى علم الطب مادة تعرف بالصلات الإنسانية فهمنا كيف وصف نفسه بأنه كان يؤدى واجباته فى الأبحاث الجامعية « فى كثير من الإهمال » وكيف وجه دروسه فى الوقت نفسه إلى اتجاهات أخرى . على أنه بالرغم من هذا التقصير وذلك الزهد فاز بشهادة الطب سنة ١٨٨١ ، وكان فى مؤخرة الناجحين

لم تكن مهنة الطب لتغرى ذلك الطبيب الشاب بالرغم من فقره وحاجته إلى دخل يعيش به . فدفعه ميله إلى علم النفس إلى التخصص فى مادة تتصل بهذا العلم وهى تشريح الدماغ والتحليل النفسى عامة ، لأن الطب لم يكن قد قرر أن لكل فرد حالة نفسية يجب فحصها ودرسها على حدة ، وهو ما استحدثه فيه « فرويد »

وقد تتلمذ فيما تخصص له على أستاذين اشتهرا بعلم التشريح وهما « بروك » و « مينير » فلم يلبثا أن لمسا فى الطالب ميلاً طبيعياً إلى الاستكشاف المبدع

نال « فرويد » سنة ١٨٨٥ درجة (أجريجاسيون) فى علم الأعصاب ، وهى درجة يحسد عليها لأنها تدر عليه المال الوفير ، ولكنه عندما أخذ يعالج مرضاه برزت فيه ميزة خاصة لازمته طول حياته وهى طول المراقبة وإنعام الفكر فى الأسباب والنتائج

كان يعرف أن الأساليب التى كان أطباء (فينا) يتبعونها فى معالجة المصابين بالأمراض العصبية غير ناجعة ولا شافية ، وكان قد بلغه كيف طرد شر طردة من عاصمة بلاد النمسا « فرانز أنطون ميسمر » حين شاء أن يدخل التنويم المغناطيسى على الطب ، فضاق فرويد ذرعاً بحالته ولم يجد له وسيلة ليتخلص بها من سيطرة أساتذة الجامعة على الأطباء عامة

فى تلك الحقبة من عمره بلغه أن بباريس طبيباً يعالج الأمراض العصبية والنفسية على طريقة تختلف تمام الاختلاف عن طريقة الأطباء النمساويين ، وهو «شاركو» المتخصص فى علم تشريح الدماغ ، وأنه يقوم بتجارب عجيبة بوساطة ذلك الفن المستحدث الممقوت فى بلاده ، وهو التنويم المغناطيسى . فسعى « فرويد » حتى حصل على إعانة من الحكومة تساعده على السفر إلى باريس . وقد سافر فعلاً فى سنة ١٨٨٦ فوجد فيها جواً غير الجو الذى ألفه من قبل ؛ وطالع كتاب الطبيب الفرنسى الكبير المسمى « الإيمان الشافى » فعرف الوسائل التى يدرس مؤلفه بواسطتها الحالات النفسية التى أحاطت بالعجائب التى رويتها كتب الدين والتى كان الطب ينفيها إلى ذلك العهد

شهد « فرويد » لأول مرة فى حياته طبيباً يأبى أن يرى فى (الهستريا) مرضاً يصطنعه العليل أو يتظاهر به ، كما كان يقرر أطباء النمسا ، ويعترف بأنها مرض نفسى ، بل لعله أجدر أنواع هذا المرض بالعناية والاهتمام ، ويدلل على أنه نتيجة اضطرابات داخلية يجب أن تكون لها أسباب نفسية . وقد برهن « شاركو » فى محاضراته على أنه يستطاع شفاء هؤلاء المرضى بالإيحاء فى حالات تنويمهم مغناطيسياً لأن علتهم خاضعة للارادة وليست ظاهرة جسمية

تأثر « فرويد » بما طالع وسمع وشاهد ، وعرف أن بباريس من يعترف بأنه فى معالجة الأمراض العصبية ، لا يجب أن يحسب حساب الأسباب الناتجة عن الطبيعة فقط ، بل الناتجة عن النفس وما وراء النفس أيضاً

وعرف « شاركو » قدر تلميذه كما عرفه من قبل أساطين الطب النمساوى فقربه إليه ، وصيره من أخصائه ، ورغب إليه فى نقل كتبه إلى الألمانية

أقام «فرويد» بباريس شهوراً معدودة ، ثم عاد إلى وطنه ؛ وكان يشعر أن « شاركو » يسلك فى علمه طريقاً غير الطريق السوى الذى يحلم به ، لأن «شاركو» كان لا يزال يعنى بالجسم ولا يتوجه تماماً إلى ما يجب أن يتوجه إليه من الناحية النفسية . على أن هذه الشهور التى قضاها بباريس أذكت فى نفس الطبيب الشاب إرادة حملته على التحرر من الماضى ، وشجاعة دفعت به إلى السير فى النهج العلمى الذى اختطه لنفسه

قدم « فرويد » إلى الجامعة ، بعد عودته من باريس ، تقريره عن الدروس التى شهدها والعلوم التى استفادها والنتائج التى انتهى إليها . فابتسم أساتذتها عندما طالعوا فيه أن فى الإمكان استحداث عوارض الهستيريا فى الجسم السليم ، وضحكوا عندما انتهوا إلى أن هذا الداء يصيب الرجال أيضاً . وكان هؤلاء الأساتذة يعطفون عليه فى أول أمره ، ولكنهم أخذوا يزدرونه عندما رأوه يمعن فى آرائه ولا يحيد عنها . فأقفلوا فى وجهه باب الجامعة ، ونحوه

عن جمعية الأطباء ، فلم يفز بكرسي مدرس فوق العادة إلا بعد لأي ، وبعد أن توسطت له مريضة سرية من اللواتي عالجهن ، وكانت ذات نفوذ فعال . وقد ظل طيلة حياته أستاذاً ملحقاً غير أصيل . وعندما احتفل ببلوغ السبعين من عمره لم تعن جمعية الأطباء بتهنئته

على أن هذا جميعه لم يفل من عزيمة « فرويد » ولم يحط من جهوده ، فقد أكب على العمل منذ صباه جاداً مجتهداً وعاش حياته كلها على وتيرة واحدة

أقام «فرويد» أكثر من سبعين سنة بمدينة فينا لا يغادرها؛ وقد رحل عنها بعد أن اضطر إلى ذلك اضطراراً عندما ضمت ألمانيا النمسا إليها وفرض النازيون في هذه البلاد قوانينهم الجائرة على اليهود ، وقد كان يهودياً ، فكان من الأفراد القلائل الذين أجيز لهم مهاجرة النمسا وأخذ ما يكفيهم حاجتهم في الحياة

وقد سكن ، أثناء إقامته بفينا ، أربعين سنة في منزل واحد لم ينتقل منه إلى غيره ولم يبدل في أقسامه وأثاثه ؛ فهنا مكتبته وهناك عيادته التي يستقبل فيها مرضاه ، وهذا مجلسه للمطالعة ، وذاك مكتبه للكتابة والتأليف

وبالرغم من أنه رب عائلة ، ووالد ستة أولاد ، فقد كان يقوم بعمله بنفسه لا يحتاج فيه إلى مساعد ، ولا يعرف شهوة غير شهوة العمل والمهنة

لم يضيع لحظة من وقته الثمين سعياً وراء مظاهر باطلة وطلباً لألقاب زائلة . وقد كانت آلاف الأسابيع التي تألفت منها حياته تتتابع متشابهة متماثلة في دائرة العمل والاجتهاد ، ولا يستثنى منها غير المحاضرات التي كان يلقيها بالجامعة في كل أسبوع من شهور التعليم ، وغير مأدبة ثقافية على الطريقة السقراطية كانت تجمع طلبته حوله في مساء كل يوم أربعاء ، وغير اشتراكه في لعب الورق بعد ظهر كل يوم سبت

أما فيما عدا هذه الساعات القلائل فقد كانت كل دقيقة محسوبة عليه يستعملها في معالجة المرضى أو المطالعة أو الكتابة أو الأبحاث العلمية . وكان هـذا الرجل الجبار يكتفي بساعات معدودة للراحة والاستجمام ينام فيها نوماً عميقاً ثم يقبل بعدها على العمل بكل ما فيه من حيوية هائلة وإرادة قوية

كان « فرويد » يعمل نهاراً في عيادته فيستقبل عشرة مرضى أو أكثر ، ويدرس حالة كل واحد منهم فاحصاً مدققاً مكتنزاً في ذاكرته كل مظهر من مظاهر عللهم ، فإذا أقبل الليل انقطع إلى عمله الخالق المبدع القائم على تدوين النتائج التي انتهى إليها مما شاهده في النهار

ولا شك أن هذا النشاط العجيب يحتاج صاحبه إلى صحة قوية وجسم سليم . وقد كان « فرويد » كذلك . فهو لم يعرف المرض في سني حياته الطويلة ، ولم يشعر بتعب أو ونى ، ولم تفتر همته ولا ضعفت أعصابه أو تلاشت قدرته على العمل

وقد أخذ نفسه في حياته العقلية بالصرامة التي أخذها بها في حياته العادية حتى صار مبدأه الوضوح في أعمال الرأي والتفكير والعمل ، وصار التحليل غريزة في نفسه لا يستطيع الانفكاك منها

كان لا يهتدي في تفكيره بغير آرائه الخاصة ؛ لذلك كان إذا عرض له أمر ولم يتبين له تفسير يرضى به عقله أبى أن يتخذ من رأي غيره تُكأة للوصول إلى غايته ، وظل يبحث ويدقق ويفكر حتى يبلغ قصده

كان قاسياً في تصرفاته ، عنيفاً في جدله ، صارماً في أوامره ، دقيقاً في تحليله ، جلداً في البحث عن الحقيقة ، حـذراً من أن يخطئ في هذا البحث ، لذلك لم تكن أراؤه مرتجلة وليدة الحدس أو الصدفة . فقد كان يدير الفكرة في نفسه سنين حتى إذا ثبت له أنها صحيحة أبرزها في جرأة وحرية . وقد صدق من وصفه بأنه كان بطيئاً في الوصول إلى الحقيقة ، ولـكنه إذا استقر على رأي صار من الصعب نقضه .

(البحث صلة) صديق شيبوب

اطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من مكتبة الزهراء شارع الملكة نازلى بالقاهرة
ومن المكتبات العربية الشهيرة